أبعاد مسرح اللامعقول

بقلم قاسم حول

اتفق المعنيون بشؤون المسرح على « ان المسرح ليس ادبا محضا انما هو ادب ذو قطبين يمثل قطبه الاول الجانب الفكري ويمثل القطب الثاني حركة الوجوه والاشارات والاصوات . ولذا فالمسرح يمت الى العالم الفكري والعالم الجسدي معا » . ومسرح اللامعقول كأي مسرح اخر مرتبط وروح الحضارة بقطبين لهما ابعادهما وجذورهما المرتبطة اصلا بالعالم الكبير للممثل .

ولقد ظهر في مجتمعات اوروبا مسرح اللامعقول نظرا لحاجة هذا المجتمع الى اي لون جديد من فن المسرح بسبب من الازمات النفسية التي يعانيها الفرد هناك . واذ كان بحاجة الى بارقة امل بدأت تنضج كتابات تقوم على الغرابة وعلى الخلق غير الملتزم بقواعد المسرح المحكمة والمتوارثة منذ عهد ارسطو بالمسرح والى اخر ما اكده « ابسن » من اصول وقواعد المسرح للمسرحية المحكمة البناء . ان مسرح اللامعقول كأثر فكري تمكن من تحويل الفلسفة من نطاق المناقشة على لسان الشخوص المسرحية الى عالم الحدث ، فاصبحت الفلسفة التي اتخذت من عبث الحياة وفقدانها لتسلسلها المنطقي والمعقول ، اصبحت هذه الفلسفة احداثا واشخاصا متخلصة بشكل ذكي جدا من الرمز ، لكنها لم تبتعد عنه كثيرا حتى الان بل بقيت على مقربة منه . ومن مفهوم لامعقولية الحياة وعبثيتها انطلق اساس اللامعقول واتخذ كتابه«اشكالا» و « مواقف » تمثل كلا منهم بشكل يختلف عن الاخر اشبه تماما بما نجده لدى فلاسفة الوجودية ، لكن المنطلق الى هذا اللون من الفن هو واحد ، ولهذا نجدهم يجمعون على تحطيم التصنيف الخاص بالالوان التي تميز فنون المسرح كالملهاة والمأساة ، فنحن هنا لا نجد في مسرح اللامعقول مأساة خالصة ولا ملهاة بحتة فقد يضحكنا ما يجب ان يبكينا « منطقيا » وبالعكس .

ولهذا المسرح منطلق هام هو تحطيم العلاقات الواقعية بين الاشخاص والاشخاص وبين الاشياء والاشخاص وبين الفرد ونفسه . ومن هنا فقط استطاع هذا المذهب ان يبتعد عن الرمز في الادب والفن. فالرمز عزل الواقع بمفهوم ايديولوجي بحت بينما استطاع اللامعقول ان يحطم هذا الحاجز ليوصل الواقع بالمفاهيم الخاصة التي تنفذ الى مفاهيم عامة بطريقة غير واقعية مفروضة في ذهن المؤلف ومنقولة كواقعة لامنطقية على المسرح . وبعد تحطيم هذه الحواجز التي تفصل الرمز عن الواقع تخلص اللامعقول من اعطاء كافة التبريرات الحياتية للاحداث المسرحية التي يقوم عليها المسرح الواقعي لتوفير عنصر الاقناع للمتفرج بقصد الاستحواذ على مخيلته وعاطفته في آن واحد . ومن هنا امتاز اللامعقول بجمع ميزتي المسرح الواقعي ومسرح « برخت » ـ الذي اشرك المتفرج ساعات العرض مع الممثل وجعله متيقظا ومساهما في معالجة ما يعرض ـ نقول استطاع اللامعقول ان يجمع بين المسرحين بطريقة جديدة وفذة ، فهو قد وفر المتعة العاطفية. والذهنية ساعات العرض وايقظ المشاهد بعد مغادرته القاعة تاركا اياه ليفكر فيما قدم له وهذه ظاهرة افتقدتها كافة المدارس المسرحية السابقة .

نحن نعرف ان الاحلام والرؤى الواعية هما متعة وايقاظ ذهني بشكل عام . ومسرح اللامعقول بتخطيه للعلاقات الواقعية اقترب من الاحلام شكلا وعبر عن رؤى الفنان شكلا ومضمونا ، ولهذا نجد نقاد المسرح قد اعتبروا هذا الفن لونا من السريالية التي اتجه لها فن الرسم وادب الشعر وتأخر عنها فن المسرح ليس بسبب افتقار كتاب المسرح لامكانية الولوج في هذا اللون « كما يقول بعض النقاد » ولكن بسبب سعة المسرح وعلاقته المباشرة بجمهرة المشاهدين الواسعة والتخوف من فقدان جمهور المسرح الذي يعتبر احد ركائز المسرح الهامة ، ذلك ان ركائز المسرح اربع هي المؤلف والمخرج والممثل والجمهور . ولهذا فان مسرح اللامعقول الذي يمثل سريالية الرسم والشعر لم يتأخر ولم يستطع اي كاتب ان يولج هذا العالم كمذهب متكامل لنقدم له خالص شكرنا ، انما بدأت محاولات اذاعية غير مقصودة او مفلسفة صارت تنضج شيئا فشيئا حتى تحددت معالمها تماما كنشأة المسرح منذ عهود اليونان وتطوره في عصرنا هذا .

المنطلق الاخر الهام لهذا المسرح هو الايغال بعالم الفرد الخاص وعكس دقائق تأملاته وانشغال ذهنيته . فالفرد الذي لا يمكن ان يكون في عالمنا الحاضر نقي المخيلة مركز التفكير في موضوع واحد حتى في حالات الاصغاء والحديث تمكن مذهب اللامعقول من تعرية ذهنيته فاصبح الحوار متداخل الشكل ، متعدد المضامين لا يخضع للفعل ورده ولا لحالات السؤال والجواب المعقولة . لهذا السبب ، ولنظرة كتاب هذا الفن الى فراغ الوجود وعبثيته ، اصبح الحوار صورة لهذا الفراغ فاقدا للتسلسل المنطقي ...

فلاديمير ـ انهى يأتون باصوات مثل الريش ..
استراجون ـ مثل اوراق الاشجار .
فلاديمير ـ مثل الرماد .
استراجون ـ مثل اوراق الاشجار .
« صمت طويل »
فلاديمير ـ قل شيئا .. « في عناء » قل اي شيء ..
استراجون ـ ماذا نفعل الان ؟
فلاديمير ـ ننتظر جودو .
استراجون ـ اه .
« صمت »
فلاديمير ـ شيء رهيب .
(من مسرحية في انتظار جودو ـ صموئيل بيكيت ـ)

●

الطبيب ـ في الواقع هناك شيء جديد ـ اذا اردت ـ يمكننا تقريره.
ماري ـ ما هذا ؟
الطبيب ـ شيء يؤكد الاعراض السابقة ـ لقد اصطدم المريخ والزهرة .
مارجريت ـ كما توقعنا .
الطبيب ـ لقد انفجر الكوكبان .
مارجريت ـ هذا منطقي .
الطبيب ـ وفقدت الشمس بين ٥٠ ـ ٧٥ بالمئة من قوتها .
مارجريت ـ هذا طبيعي .
(من مسرحية الملك يخرج ـ يوجين يونسكو ـ)

يأخذ بعض الكتاب واصحاب الرأي على مسرح اللامعقول مأخذا ليس في صالح هذا المذهب ، منطلقين من نقطة خلافهم الثابتة والخاصة بنظرة الفرد للوجود ، فهم – اي اصحاب هذا الرأي – يعتقدون بأن الحياة يمكن ان تكون احسن حالا لو توارثت الاجيال نظرتها الايجابية للكون وسعت بشكل او اخر لاسعاد الانسان ، بينما ينطلق اللامعقول من لا معنى الحياة وهو بهذا يسعى لكي يفقد الانسان ايمانه بجدوى هذه الحياة . والحقيقة ان اللامعقول عندما انطلق من هنا لم يترك الانسان يضيع في هذه المتاهة بل سعى الى تحديد موقف الفرد من هذا اللامعنى، وهذه نظرة اكثر ايجابية مما يدعى بالنظرة الايجابية الهادفة للحياة . وهي اكثر معقولية واصوب رأيا من اختها التي تترك الحياة كما هي مرسومة دون التوغل في ابعادها . فها نحن امام يونسكو مثلا في الخرتيت . نحن مثلا نقبل على الزواج بشكل عام بحكم العادة . او نخضع لمبادىء عامة انتشرت بين الناس وصارت موضة عامة يشذ من لا يتبناها ، او حتى قبولنا للحياة العائلية والسلوك بين افراد العائلة الواحدة .. اليس هذا نوعا من الخرتتة ؟! قرأت مرة نبأ في احدى الصحف يقول ان فناني ايطاليا ينتمون الى الحزب الشيوعي الايطالي كنوع من انواع الرقي ! اليس هذا نموذجا فريدا للخرتتة ؟! هذا الخضوع للمبادىء العامة او السلوك المتعارف عليه بحكم العادة يضعنا يونسكو امامه ثم يسجل لواحد من الناس موقفا صامدا امام هذه الغمامة التي تخيم فوق رؤوس الناس . او نجد « صموئيل بيكيت » يقطع علينا الامل ويضعنا وجها لوجه امام حقيقة واحدة هي ان لا منقذ لهذا الانسان في محنته ، بل لهذا الكون في محنته ، وبذلك يجبرنا ان نعيد النظر في موقفنا وحياتنا من جديد .. ان لا منقذ سيأتي ، لا مسيح اخر يتحمل الام الناس وعبء البشر . علينا ان لا نبقى في انتظار جودو ، فهو لن يأتي اليوم ، ولن يأتي غدا ولا بعد غد ....

ان هذه المواقف التي يسجلها كتاب اللامعقول للانسان توقظ ذهن المشاهد اضافة الى ما تقدم له من فن سحري يمزج الاحلام بالواقع ويسبك الواقع برؤى الفنان الخاصة لتسجل صمودا جديدا وانطلاقة جديدة لحضارة المسرح .

قلنا ان ادب المسرح يمت الى العالم الفكري والجسدي معا . تحدثنا عن القطب الفكري ، والان سنتحدث عن القطب الجسدي الذي يمثل حركة الوجوه والاشارات والاصوات .

في المسرح الواقعي الذي ينظر الى الحياة والانسان نظرة علمية يسلك الممثل للتغلغل الى اعماق الشخصية المسرحية دراسة الحالات النفسية والصفات الجسدية ومكان الرواية وزمانها ، ويستند الى التجارب الشخصية المماثلة وعلى استعادة هذه التجارب للوصول الى تحريك الشخصية المكتوبة وتقمصها . فما الذي يجب ان يسلكه الممثل للتوصل الى تقمص الشخصية المسرحية في مسرح اللامعقول ؟

لو قرأنا نماذج شخصيات اللامعقول لما وجدناها من صنع الله ! اما شخوص المسرحية الواقعية فانها شخوص بشرية خلقت اطفالا وعاشت في المجتمع وتأثرت فيه ، واثرت فيها الاحداث حتى نمت وتزاوجت وانجبت اطفالا اخرين ثم تبلغ مرحلة العجز لتموت . فنحن نجد في مسرحيات « تشيخوف » عمالا وكتابا ومثقفين وبرجوازيين كالذين نلتقي بهم ونتحدث اليهم في حياتنا اليومية . ونجد لدى «ابسن» و «اونيل» المنافقين والكسالى والطموحين يتصارعون ويتحابون كالذين نلتقي بهم ونتحدث اليهم في حياتنا اليومية . كما تجد لدى « وليامز » الشبقيين والمنحرفين والمتقدين جنسيا .. وهكذا فنحن نجد لدى كل كاتب نماذج من الناس كالتي خلقها الله ودفع بها الى هذه الارض لتحيا في حدود المائة عام . لكن « يونسكو » مثلا يقدم لنا بعض النماذج التي تحيا مئات السنين « وفي الخمسين كنت تريد ان تبلغ الستين اولا .وهكذا أمضيت من الستين الى التسعين ألى المائة وخمس وعشرين ومائتين حتى بلغت اربعمائة سنة . فبدلا من ان تؤجل الامور عشر سنين كل مرة كنت تؤجلها بالخمسين سنة ثم بالقرون من قرن لقرن – مسرحية الملك يخرج » . كما ان شخوص المسرحية الواقعية تعرف كيف واين ومتى تعيش لانهم شخوص من هؤلاء البشر الذين يعرفون المكان والزمان بعكس شخوص اللامعقول فقد نجد بينهم من لا يعرف اي يوم من الاسبوع هو اليوم اذ لا ميزة بين الجمعة والثلاثاء سوى التسميات التي اوجدت منذ زمن بعيد وبقيت تتوالى علينا « استراجون – ولكن اي سبت ؟ وهل اليوم يوم سبت ؟ الا يبدو عليه انه الاحد ؟ او الجمعة ؟».

هذه الشخوص كيف ستبدو على المسرح لو استرسل الممثل بها وانغمر او انسجم في معانيها ؟ لو اخذنا اية مسرحية ونقلناها على المسرح كما هي مكتوبة وطلبنا من الممثلين ان يعيشوا معاني حوارها ولينفعلوا في مناظرها وقدمناها للمشاهد بهذا الشكل ، فلا يمكن الا الاعتقاد باننا امام لوحة من مستشفى الامراض العقلية . وهنا علينا ان نقضي على مثل هذه اللوحة ، نمزقها ، لنوجد بدلها لوحة اخرى ترسم لكل واحد من المشاهدين رؤاه الخاصة من خلال بداية الطريق الذي رسمه المؤلف ويقدمه الممثل . وهذا لا يتحقق الا اذا ادرك الممثل في مسرحية اللامعقول ضرورة المحافظة على وعيه التام ومراقبة نفسه وعلاقتها بالاخرين من الممثلين من جهة وعلاقته بالجمهور من جهة ثانية. وانه – اي الممثل – شخص غريب في عالم غريب بالنسبة للمشاهدين. اما عالم الممثل والممثلين فيما بينهم وعلاقتهم بالمكان والزمان فانه عالم معقول ليس فيه اي جانب من الغرابة ، يقوّم على الايمان بالافعال والتصرفات . ولدى تحليلنا لهذه الشخصيات لا نستطيع ان نتوصل الى جوهرها من خلال ما تقوله عن نفسها وما تقوله الشخصيات الاخرى عنها ، بل نستطيع ان نتوصل الى هدف كل شخصية من هذه الشخصيات من كل « وليس من خلال » ما تقوله كل شخصية ، ذلك ان الكلام المؤدى من قبلها لم يكن هو الواسطة والوسيلة بقدر ما هو هدف تسعى اليه

صدر حديثا :

الناس في بلادي

للشاعر صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من الديوان الاول لاحد زعماء مدرسة الشعر العربي الحديث واحد رواد النهضة الشعرية المعاصرة .

الثمن ٢٥٠ قرشا

منشورات دار الاداب

الشخوص بدلاً من أن يسعى هو – أي الكلام – لايضاح صفات ومزايا الشخصية الداخلية والخارجية .

في مسرحية « كل الساقطين » تقول « مسز روني » بعد ان يغلق « سلوكم » باب السيارة « ردائي .. لقد اغلقت على ردائي . ردائي الجميل . انظر ماذا فعلت بردائي الجميل .

ونحن عندما نريد ان نختار لمسز روني ثوبا فهل يكون رداؤها جميلا ؟ هل لا يتقرر من الجملة نفسها ، لانها لا تعبر عن حقيقة واقعة، لكننا بعد ان ندرس كل ما تقوله مسز روني نقرر نوع الرداء الذي تلبسه . فقد يكون جميلا فعلا ، وقد يكون اسود متسخا وقد تظهر مسز روني من دون رداء !

ان الافعال والتصرفات على المسرح اللامعقول لا تخضع للفعل ورده كالذي يحدث في حياتنا اليومية . اذ ان علاقات الناس ببعضهم كما يراها اللامعقول مفككة لا تقوم على الالتزام والارتباط المتعارف عليه ، اذ ان اللامعقول – كما اسلفنا – يتوغل بالعالم الخاص للفرد . واذا ما اردنا ان نشكل اللوحة على المسرح علينا ان نشعر المشاهد بان بناء الحياة وكيان المجتمع لا يمثل قطعة الحياة التي نحياها بالتزاماتها . فالفرد بين الاخرين هو عالم خاص منفرد له تفكيره وتأملاته في كل لحظة من وقته . ولكي نظهر هذا على المسرح يجب على الممثل ان يفكر بنفسه دائما . فاذا استطاع ان يفعل هذا على المسرح سيحقق – ولا اقول يبرر – عدم ترابط الحوار بينه وبين ما تقوله الشخصيات الاخرى .

من هو ممثل اللامعقول ؟

يقودنا مسرح اللامعقول الى القول بان هذا اللون لا يمثل الا البرجوازية الفكرية . وهو يفرض مسبقا وجود مشاهد ذي مستوى عال ، ولذا فقد فشل هذا المسرح على المستوى الجماهيري والشعبي .

ومن هنا يتوجب علينا لكي نحقق الهدف المطلوب من مسرح اللامعقول ان نوفر كادرا من الفنانين يتمتعون بمستوى ثقافي ، ذلك ان تجارب الممثل الحياتية التي يستمد منها مادته المسرحية في المسرح الواقعي لن تنفعه على الاطلاق ، بل الذي يمده بالمادة في هذه الحال هو احساسه بلا جدوى هذا العالم ومحاولة البحث عن معنى لهذا الوجود . وان اي ممثل من هؤلاء الذين يتمتعون فقط بوسامة الشكل وقابلية الاداء ومرونة الجسم والذين يملؤون المسارح وشاشات السينما والتلفزيون لن تنفعهم هذه الصفات وحدها لتحريك ابسط شخصية من شخوص مسرح اللامعقول . لذا فان ممثلي مسرح اللامعقول هم ممثلون من نوع خاص ، كما ان مشاهديه هم مشاهدون من نوع خاص ايضا .

نستنتج مما تقدم ان مسرح اللامعقول بقطبيه الفكري والجسدي ينحصر في فئة محدودة من الفنانين والمشاهدين . والكاتب الذي يكتب للناس والذي يقدم على طبع نتاجه او يقدمه لخشبة المسرح او شاشة السينما انما يقدم هذا النتاج للناس شاء ام لم يشأ . اما اذا اراد ان يحض او يحصر او يعرض كتاباته لفئة محدودة من الناس فهذا ايضا من محض حريته ، فهناك من يحض العمال بكتاباته وهناك ايضا من يجند قلمه لطبقة الفلاحين . ومشكلة اللامعقول في الوقت الحاضر هي اكتساب الطعام لبث الحيوية من اجل البقاء الا وهو جمهور المشاهدين . ولقد دلت الاحصائيات حتى الان على اكتساب هذا المسرح الصفة التجريبية .. ولكن ، لوحظ ان عدد مشاهدي هذا المسرح قد بدأ يتزايد . ويعزو البعض ذلك الى الغرابة التي تدهش المشاهد امام المسرح . والغرابة هنا ستكون دافعا لتدفق الكثير من المشاهدين والامل يتزايد بنفس الوقت لكسب المشاهد الذي سوف يأخذ بالتفكير بعد ان يجد نفسه مسمرا على الكرسي امام خشبة المسرح .. وامام غرابة ما يتحرك امام ناظريه .

البصرة

قاسم حول

صدر حديثا :

تجديد رسالة الغفران

لابي العلاء المعري

بقلم خليل هنداوي

« رسالة الغفران » للفيلسوف العبقري ابي العلاء المعري يجددها مضمونا وشكلا الاديب العربي المعروف الاستاذ خليل هنداوي ، فيقربها الى الاذهان ويبسط آفاقها ويبرز اروع صورها حيث ترى سخرية المعري اللاذعة وانسانيته الرائعة

منشورات دار الاداب